

الفصل الرابع والعشرون

على أن الأمر بين سيدي وبينني لم يلبث أن تعسر بعد يسر، وتعتقد بعد سهولة، واشتد بعد لين، فلكل شيء أجل، وللصبر أمد ينتهي إليه، وللمطاوله غاية تقف عندها، والمياسرة خير إلا أن تستحيل إلى ضعف وإذعان، وما ينبغي لسيدي أن يظهر مظهر الضعيف المدعن لخدام مثلي ليس لها حول ولا طول، وهي لا تأوي إلى ركن شديد، ولا تعتز بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه، وإنما هي كلمة منه تبقيها في داره عزيزة مكرمة أو تخرجها من هذه الدار ذليلة مشردة، وقد علق سيدي هذه الكلمة في طرف لسانه أياماً وأياماً، يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفثيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذي يحملها إلي رُدت إلى مكانها واستقرت في موضعها من طرف اللسان استقراراً وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً.

ومُدت لي أسباب البقاء في هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما يخرج سيدي لبعض شأنه، ثم يعود فيدعوني إلى ما كان يدعوني إليه في هذا الإلحاح المتصل، المضحك المحزن، الذي يفسد على الرجل أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر، عزيزاً كأنه السيد وذليلاً كأنه العبد، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات الجوفاء التي يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً، ويملؤها المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء، وتصور دائماً نقيض معانيها الظاهرة، وتعتبر دائماً عما لم يُرد صاحبها إليه، ويملاً نظراته بهذا الشرر المحرق حيناً، ثم بهذا الانكسار الذليل حيناً آخر، ويجعله يدور حول غايته التي يشتهيها وأمنيته التي يبتغيها، كما يدور العابد حول الصنم وكما يدور اللص حول البيت يبتغي ثغرة ينسل منها إليه!

نعم! كذلك كنت ألقى سيدي مع الصبح باسمه مشرقة الوجه، أحمل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره، وقد كان سيدي يحيا حياة الإنجليز، فلا